الفصل الأول

ألقِ السلام على طفولتِك

حفْنَةٌ مِنْ زَبَدِ البَحْرِ

الماضي:

الماضي في يدي كحفنةٍ من زبدِ البحرِ، كلُّ ما تبقى من البحرِ، كوجه غيرِ واضح المعالمِ يتوقف لبضعِ لحظات وكأنه يستعد للتبعثرِ بعدها والذهابِ بعيداً.

لقد تخطيتُ الأيام، مر الكثير على الأسرِ الَّذي تملك أطرافي الأربعة، ثلاثون سنة من الانكسارِ، من يعلم كم كلمة قد تركتُ في قلبِ هذا الماضي؟ ألف مليون! كم ظِلٍّ وجهٍ قدِ انعكس على وجهي، إلى أي طريقٍ قد أخذتني خطواتي؟!

مثل أيِّ شخص، أنا أيضاً لا أتذكر كل ماضيَّ. كل ما أذكره من ماضيَّ محدوداً ببضعِ أشياء، كشريطِ فيلمٍ قديم يستمر بالعرضِ أمام ناظري. صحيحٌ ما يقوله بافيسي: «نحن فقط نتذكر الذكرياتِ، وما يدورُ فيها من وجوه، والصور التي تركتها في قلوبِنا.

الأسْود في حياتنا حينَها، يعني طفولتُنا التي لا وجود فيها للكهرباءِ، قرية وفيرة بالمياهِ خضراء اللونِ، جمال الخضارِ الَّذي يضيف للحياةِ رونقها. كان هُناكَ جبلٌ يطل على منزِلنا. كان الناس يذهبون إليه يدعون الله أن ينزل المطر.

لَقَد ذهبت مع تِلكَ الحشودِ مرتينِ. وفي أثناء تسلقي وعند تعبي، كُنتُ أرتاحُ قليلاً فأنظر إلى الأسفلِ باحثاً عن منزلي بَيْنَ كلِّ تِلكَ المنازلِ. كُنتُ أحبُّ الدعاء الَّذي يتلونه. بَعدَ الانتهاءِ من الدعاءِ كان كل شخص يعرض ما أحضره معه من طعام في سفرة طويلة يبدأ الجميع بالأكلِ معاً. الآنَ أصبحت أفهم جيداً، ما كنا ندعوه دعاء مطر كان عبارة عن نزهة جميلة.

على طولِ الطريقِ المؤدي إلى مدرستِنا كان هُناكَ شلالات ماء. وكَانَت هُناكَ حديقة كبيرة تحيط بها أشجار السروِ من كلِ الجوانبِ. لا أتذكر جيداً إذا كَانَت مُسيجة أم لا. ولكن ما أتذكره، لمْ يكنْ لأحد منا سياجٌ تقيده. هُناكَ شيءٌ آخرُ، كان هُناكَ معلمٌ ضخمٌ جدّاً في القريةِ، كان اسمه علياً. كان سميناً قليلاً، حنطي اللونِ، طويلاً.

كان يُدرِّسُ من الصفِّ الأوَّل إلى الخامسِ. لَقَد كنَّا صغاراً. أتذكرُ جيداً قضائي لأولِ سنين دراستي مع هذا الرجلِ الضخمِ.

هُناكَ شيءٌ واحد أتذكره من سنين دراستي الابتدائيةِ، وأثره لايزال إلى الآنَ بداخلي، ولكن شرحه صعبٌ عليَّ. كنا نتنزه في جميعِ أنحاءِ القريةِ، نمشي، وبدورٍ مُنظم خلف بعضِنا بعضاً. ليسَ ذهابنا الَّذي في ذاكرتي الآنَ بل عودتنا من هُناكَ.

كُنا نسيرُ بَيْنَ الجبالِ، يقودنا معلمنا عليٌّ. كان الدور الَّذي نسير فيه يتشتت أحياناً، لسيرِنا في طريق تمر به السيارات. خرجتُ من الدورِ دون أن يشعر بي أحد وذهبت بعيداً عنِ الطريقِ. ولكن المعلم بطرفِ قدمهِ اليمنى أعادني إلى الدورِ. ولكن يا لها من طريقة! لمْ يكنْ هُناكَ أيُّ داعٍ لهذهِ القوةِ كلِّها.

جاء الربيع، بسمائِه الزرقاءِ، وأرضهِ الخضراءِ، بداخلي طيورٌ بيضاءُ تطير، كل شيء ملونٌ وجميلٌ من حولي ما عدا المعلم علي كان أسودَ.

الـمُعَلِّمُ سَالِمٌ

لم أكن أريدُ أن أكون مُقيداً في سنين الدراسةِ الأولى. لو كُنتُ قد أخبرت عائلتي بذَلكَ هل كانوا سيفعلون شيئاً؟ لا يمكنني حتَّى التنبؤ بالجواب. انتقلت بَعدَ ذَلكَ إلى أقربِ مدرسةٍ متوسطة من قريتِنا بكفالة أحدِ أعمامي. لَقَد بدأت الدوام مع ابنِ عمي الَّذي كفلني.

كُنتُ أسكن مع خالتي؛ طقمٌ رسمي، ربطة عنق، كُنتُ أبدو أكبر من عمري بعشرِ سنوات. لم أكن حزيناً على فراقي لعائلتي، لأَنَّني كُنتُ أشعر بداخلي أنني يجب أن أتعلمَ. وكأنَّ حياتي قد رُسمت داخل كتاب. وكأنَّ قدري يتتبع أثر السطورِ التي بداخلِ هذا الكتابِ. فور وصولي إلى البيتِ كُنتُ آخذ كُتُبي وأذهب خارج القريةِ. كُنتُ أجلس متكئاً على صخرة تسطع عَلَيها الشمس، وأحضن كُتُبي.

كنت غريباً عن هَذِهِ القريةِ. ولكنني في النهايةِ جئت

من قرية أيضاً. كُنتُ حزيناً، وحيداً ومكسوراً. كُنتُ أتفاهم مع كتبي أكثر من أيِّ شيء آخرَ. كَانَت تأخذني إلى أماكن جديدة لا أعرفها. كُنتُ أجد نفسي في تِلكَ الأماكنِ.

أصبحت الطالب المشهور في المدرسةِ. كان مدير المدرسةِ سالم يتكلم عني بفخر شديد، كان يمدحني كثيراً. مع تقدمي في الصفوفِ ومع قراءتي لمزيدٍ من الكتبِ كُنتُ أثير إعجاب الجميعِ أكثر فأكثر. كانوا يقولون عني: «لهذا الطفلِ مستقبلٌ باهر». كُنتُ أشعر بالسعادةِ لسماعي هذا.

كان المدير سالم ملهِمِي، لمْ يكنْ من النوعِ الصارمِ، كان دائماً مبتسماً وضحوكاً، كان كالطفلِ الكبيرِ بَيْنَنا. كان عمره قريباً من الثلاثين، ولكنَّه مازال أعزبَ. لَقَد كان مُغرماً بمعلمةِ الرسمِ سارة. كان الطلاب مدركين جيداً لحبهِ لها وكانوا يضحكون معه مازحين.

إنه الرجل الملهم، كان يُحفزني على دخولِ الامتحاناتِ بإصرارهِ الشديدِ، وعلى الثانويةِ الفنيةِ وغيرِها.

أستاذي، لا أعلم أين أنت الآن، ولكني أتمنى أن تكون ضحكاتك الملهمة مستمرة مع الآنسةِ سارة.

الأَدَبُ وَالعِشْقُ

في رحلتي المتوجهةِ من ديار بكر إلى أضنة كطفل غريب جالس في الحافلةِ، قلبه لا يهدأ من شدةِ الحماسِ والترقب لما ينتظره في نهايةِ هَذِهِ الرحلةِ.

كنتُ متوجهاً إلى أضنة، إلى المدينةِ الكبيرةِ، الحياة كَانَت تكبرُ حقاً. كَانَتِ الحافلة كطيرٍ فارد جناحيهِ. لا أعلم إلى أين يتجه بطيرانهِ. كان يزيد حماسي كلَّما تقدمت بنا الحافلة تاركين خلفنا مدناً على طولِ الطريقِ. كان قلبي يخفق بشدة.

استيقَظْتُ في ساعة مبكرة من الصباحِ لأجد نفسي في أضنة. كغريب خطا أولى خطواتِه في هَذِهِ المدينةِ.

كان شهر أيلول، كان حزيناً عند معرفتي الأولى به.

حبيبي، أيها الخيال الَّذي يبعد عني مئة كيلو متر. كأن خيالي ينهال فوقي وأنا في سني الصغيرِ هذا، وكأنني

أختنق. كان واضحاً أن الأيام في أضنة ستمر بصعوبة. كَانَتِ الثانويةُ التجاريةُ هي ثانويةُ الطبقةِ العليا من مجتمعِ المدينةِ. وكنتُ أنا الوحيدَ من الطبقةِ السُّفلى.

ما كان كل هذا؟

كنت أسكت.

كان ملجئِي الوحيد هو الصمت بَيْنَ كل تِلكَ الضحكات، الثقة الزائدة واللامبالاة.

أخذت في الفصلِ الدراسي الأولِ أول شهادة لي، كَانَت لديَّ علامات ضعيفة في كلِّ موادي. كانوا ينظرون إليَّ بسذاجةٍ.

كَانَت بالنسبةِ لي خسارة فادحة. هُناكَ صوت بداخلي يقول لي: اترك كل شيء واذهب. صاحب العينانِ المبتسمة، الوحيد الَّذي لا يختلط مع أحد، فقط يذهب ليقرأ إحدى الرواياتِ تحت الشجرةِ، كان أنا. لو لم توقفني المُعلِّمَة نور كُنتُ سأترك كل شيء وأذهب. ولكنَّها لم تتركني.

قالت لي:

ـ لا تذهبْ، سوفَ تنجحُ.

ذهبتُ إلى أصدقائي؛ أبطال الروايات التي كُنتُ أقرؤُها، كانوا يؤنسونَ وحدَتي، فقدْ كَانَت حياتي تعجُّ بوجودِهم فيها.

كنتُ أحبُّ المُعلِّمَة نور. كَانَت نظراتُها تُريحني، كُنتُ أريدُها دوماً أن تنظرَ إلي. لَقَد تعرفت على بطلةٍ لا تُنسى حقاً. كُنتُ أنا الشخصَ الوحيدَ الَّذي تؤمنُ بموهبته. كُنتُ أخضر كلَّما سقَتني ماءً.

أصبحتُ حديثَ المدرسةِ مِنْ جديدٍ، حتَّى المعلمات كنَّ يتحدثْن عني. وبالأخصِّ عن مقالاتي الأدبيةِ. كُنتُ أتعرفُ على أبطالِ الكتابةِ. زوجُ المُعلِّمَةِ نور، أستاذُنا في علمِ الفلسفةِ والاجتماعِ كان فخوراً بي لأَنَّني كُنتُ الطالبَ الوحيدَ الَّذي أخذَ العلامةَ التامةَ في درسهِ.

رحلتي مع المُعلِّمَةِ نور تزدادُ عمقاً. عِندَما أخذتُ شهادتي للفصلِ الثاني، كانَت تحثُّني.

ـ معلمتي نور، ما وصلتُ إليه اليوم وما سأصلُ إليه هو بِسببِ تِلكَ النظرةِ التي نظرتِ بها إليَّ، ولو قُلتُ أنها تُوازي نظرةَ أُمِّي فلنْ أكونَ قدْ بالغتُ.

أُمِّي تَرْتَدِي الأَسْوَدَ

مُنذُ (14) عاماً وأمي تَعيشُ داخل عالـمِ من الظلامِ الأسودِ بَعدَ وفاةِ والدي. فقدتْ أُمِّي ضحكتَها، سعادتَها وحماسَها، واستقرَّتْ داخلَ سوادٍ مظلمٍ.

نعم، أُمِّي كَانَت ترتدي الأسودَ.

لـمْ تكنْ ترتدي لوناً آخرَ غيرَ الأسودِ، لا أحمرَ، ولا أخضرَ، ولا أزرقَ... كلُّ تِلكَ الألوانِ الجميلةِ لم أرَها ترتَديها. كانَ ما عَلَيها من ملابسَ شاحبةِ اللونِ لا حياةَ فيها.

في الحَقيقةِ لمْ تكنْ أُمِّي تلبسُ الأسودَ على الإطلاقِ. كَانَت ترتدي أجملَ الألوانِ وبالأخصِّ الألوان التي تبعثُ في النَّفسِ الفرحَ والحياةَ.

كَانَتْ تَضحكُ، تَضحكُ كثيراً، ابتساماتها الجميلة،

حديثها الشيق، وقفتها الشامخة وتزيدُ من أُلْفتها، لمْ تكنْ لديها مشاكلُ وهمومٌ في الحياةِ، كَانَتْ تَعيشُ على هواها.

تحبُّ والدي كثيراً، ووالدي يحبُّها، وأنا وإخوتي كنَّا نتاجَ هذا الحبِّ الجميلِ.

لقدْ أخبرَ والدي أُمِّي بحبِّهِ لها وحقيقةِ مشاعرهِ تجاهها في وقتٍ كانَ يصعبُ فيه قولُ هَذِهِ الكلماتِ. لا أعلمُ كم من المراتِ تردَّدَ والدي قبلَ أن يتجرأَ على قولها، كانوا يضحكونَ على والدي، يقولونَ عِندَما يرونه:

ـ انظروا إلى هذا الرجلِ الكبيرِ، مازالَ إلى الآنَ يتصرفُ بتهورٍ كالأطفالِ.

ولكنَّني متأكدٌ أنهم يحبونهُ. حتَّى ولو لم يظهروا ذَلكَ ولكني كُنتُ أشعرُ به. فرغمَ فقرهِ يملكُ إحساساً مرهفاً. كانوا سعيدينَ جدّاً بجانبهِ، لذَلكَ لمْ يكنْ يخلو منزلُنا من الضيوفِ.

وكَانَتْ تحبُّ أبي أسعد امرأةٍ في القريةِ. موقفُها يحتاجُ إلى شجاعةٍ لم تتجرأِ الكثيرُ من النساءِ عَلَيه. لَقَد جرحتْ جدي عند اختيارِها لوالدي زوجاً لها، لم تتكلمْ

معه لسنواتٍ. حتَّى أخوالي لم تذهبْ إليهم مُنذُ زمنٍ طويلٍ، ولكنَّها لم تترددْ في قرارِها أبداً، وسلمتْ قلبَها لوالدي وهي مطمئنةٌ.

أُمِّي ترتدي الأسودَ، لأَنَّها تحبُّ والدي. قبل (14) سنة في صباحِ يومٍ ربيعيٍ فقدَتْ شريكَ حياتِها.

كانَ فصلُ الربيعِ، والألوانُ تملأُ الأرضَ، أعطى والدي آخرَ نفسٍ له في بلدٍ أخرى بعيداً عنا. حلَّ الظلامُ في ذاكَ اليوم على قلبِ أمي، ومن ذاكَ اليومِ إلى الآنَ وهي ترتدي الأسودَ، لأَنَّ كلَّ لونٍ آخرَ يذكِّرُها بوفاةِ والدي.

أمِّي ترتدي الأسودَ، ولكنَّها لمْ تكنْ تفكِّرُ بسوداويةٍ، ولمْ تكنْ تَعيشُ داخلَ السوادِ. إنها تثيرُ دهشتي كيف وُلِدَتْ وكبرتْ في هكذا مجتمعٍ بعيداً عنَّا، ثمَّ فقدتْ والدي بَعدَ ذَلكَ. ولكن لمْ يكنْ يخلو منزلُنا من صَديقاتِها اللَّواتي وقفن بجانِبها والمعجبَات بشخصيَّتها القويةِ.

ترتدي أُمِّي الأسودَ ولكنَّها لم تعشْ داخلَهُ.

طُفُولَتِي، تَارِيْخٌ قَدِيْمٌ

أمضيتُ طفولتي مهاجراً من البيوتِ ذاتِ الحدائقِ الخلابةِ إلى بناياتٍ حديثةٍ. كُنتُ كبيتٍ مبعثرٍ غيرِ مرتبٍ يأتيهِ العيدُ على غفلةٍ.

لقدْ فهمتُ ذَلكَ الآنَ.

إنَّ أفضلَ من يستقبلُ العيدَ همُ الأطفالُ. عِندَما يأتي العيدُ يجدُ الأطفالَ فقطْ همُ الَّذين تحضَّروا لاستقبالِهِ.

في الحَقيقةِ كُنتُ أَتوارَى عنِ الأنظارِ في العيدِ. مُنذُ الصباحِ أُغلقُ هاتفي لا أردُّ على الاتصالاتِ ولا على الرسائلِ، وأنغلقُ على نفسِي.

أقرأُ قصصاً عنِ الوطنِ والأمومةِ. طلبتْ مني الصحيفةُ أنْ أكتبَ مقالةً فيها، فأعطيتُ مقالَتي في أولِ يومِ عيدٍ.

عِندَما أنهيتُ كتابتَها في آخرِ الليلِ فتحتُ هاتِفي، توقفتُ للحظةٍ، هُناكَ المئاتُ منَ الرسائلِ الصوتيةِ كَانَتْ

قدْ وصلتني خلالَ اليومِ. تخطَّيتُها جميعاً، وفتحتُ أشعارَ إبراهيمَ لأستمعَ إليها.

استيقَظْتُ على صباحٍ ماطرٍ، تمطرُ كثيراً هنا في مدينةِ أزمير. يجبُ عليَّ الذهابُ إلى مكانٍ ما لذَلكَ ركبتُ الحافلةَ، وبيدي قصيدةٌ كتبتُ أسفلَها:

«أيتُها المدينةُ الفاشلةُ

لماذا أنتِ متعاليةٌ على الناسِ؟».

توقَّفَ المطر. توجهتُ إلى الباخرةِ ماشياً في الشوارعِ المبللةِ بَعدَ مطرٍ غزيرٍ. أردتُ الاتصالَ بالشاعرِ إبراهيمَ، لكن لَمْ يكنْ ذَلكَ ممكناً، فأصواتٌ بداخلي تمنعُني من فعلِ ذَلكَ.

بقيتُ جالساً هكذا في الباخرةِ أُصغي إلى الأصواتِ بِداخلي التي لا تهدأُ، وأنظرُ إلى الوجوهِ. هذهِ الوجوهُ ليستْ وجوهَ مسافرينَ. إنَّها وجوهٌ لناسٍ خرجتْ من منازِلها كاسرة قيودَ العيدِ. وجدوا الفرصةَ بهذهِ العطلةِ ليسْترخوا قليلاً على ساحلٍ لم يذهبوا إليه مُنذُ زمنٍ.

لم تكن هذه الوجوه عائقاً ضد الأطفال، فالحياةُ

بالنسبةِ لهم مدينةُ ملاهٍ كبيرةٌ يستطيعونَ اللعبَ والمرحَ متى شاؤوا. أما الأمهاتُ والآباءُ فيبدو عَلَيهم أنها المرةُ الأولى التي يركبونَ فيها باخرةً.

البحرُ، طائرُ النورس، أمواجُ البحر التي تولدُها الباخرةُ من الخلف، كلُّها تذكرنا مرة أخرى بالعيد. رحلةُ الباخرة في يوم العيد أعادت لي ذكريات طفولتي. الأهلُ أيضاً لم يختلفوا كثيراً عنِ الأطفال، فالجديةُ التي كَانَت على وجوههم تحولت إلى ابتسامات في هذا اليوم الجميل.

لمْ يكنْ يبدو على الركاب أنهم صعدوا على متن هَذِهِ الباخرة للذهاب إلى القصر. لمْ تكنْ عيونُهم على القصر، بل على البحر وعلى طائر النورس وعلى كل ما يبعثُ السعادةَ على وجوه أطفالهم في هذا اليوم.

كَانَت رحلتُنا تسيرُ على نحو جيد. فالبحرُ وأمواجهُ وطائرُ النورس كلُّ ذَلكَ قد خففَ عناءَ السفر الَّذي يكونُ في العادة.

في الرحلات السابقة لمْ يكنِ الركابُ يهتمونَ بمنظر البحر أو حتَّى بتأمل جمال طائر النورس، كان المهمُّ

لديهم هو الوصولُ إلى المرفأ واللحاقُ بأعمالهم، أمَّا البحرُ والباخرةُ فهما وسيلة نقل لا أكثر.

ولكن هل القادمون من ضواحي المدينة يشعرون الشعور نفسه أيضاً؟

لا ، فحماسُهم أكثر وسعادتهم لا توصفُ. لمْ تكنِ الباخرةُ تعني لديهمُ الوصولَ إلى المرفأ. يجلسون في الباخرةِ ولكنَّهم يعيشون الرحلةَ بكلِّ تفاصيلِها سعيدين بها مستمتعين. أجسادُهم على الباخرة ولكن قلوبهم ونظراتهم كَانَت على البحرِ وعلى طائرِ النورسِ.

نعم، العيدُ يجدُ الأطفالَ همُ الأكثرُ استعداداً له. ومن بَعدِ ذَلكَ فقراءَ المدينةِ.

لقد فهمتُ ذَلكَ من النظرِ إلى وجوهِ الأطفالِ الفقراءِ. كَانَت أضواءُ المدينةِ تضيء عَلَيهم فقط في العيدِ.

أما الأغنياءُ يستغلون هَذِهِ العطلة ذاهبيْنَ إلى مكان للاستجمامِ تاركين المدينة للأطفالِ والفقراءِ ليمرحوا بها.

أَلْوِ السَّلامَ عَلَى طُفُولَتِكَ

«إذا اقتُلِعَتْ شجرةُ النخيلِ هَذِهِ أيضاً، وشجرةُ الرمانِ والتينِ فلن آتي إلى هَذِهِ المدينةِ بَعدَ الآنَ.

حتى لو كَانَتِ الأنهارُ تدركُ هذا فلا تستطيعُ قولَ شيءٍ، ولكنْ على لساني الكثيرُ من الكلامِ الَّذي يخرجُ من قهري الشديدِ».

صادق ياشار

أعلمُ أنكم تستغربون جلوسي هنا في هَذِهِ الساعةِ المبكرةِ من الصباحِ. كيف لي أن أشرحَ لكم؟ هل أستطيعُ أن أفصحَ عمَّا في داخلي، أو هل ستستطيعون تفهُّمي؟ لا أعلمُ.

لا، فأنا لستُ شخصاً عادياً. إنني داخلُ قصةٍ قصتها عليَّ جدتي ذاتَ يومٍ. وأنا بطلُ هَذِهِ القصةِ.

تفاجأتُمْ أليسَ كذَلكَ؟ لديكمُ الحقُّ في ذَلكَ. فبعدَ أن

أصبحتُ داخلَ هَذِهِ الحكايةِ كلُ ما أعيشُه وأقرؤهُ يثيرُ في نفسي الدهشةَ. أجلسُ وحيداً بَيْنَ طيَّاتِها. كل يومٍ يأتي طائرٌ على نافذتي المطلةِ على الشارعِ يأخذُني معه إلى حكايةِ جدتي.

من المحتملِ أنَّ جلوسي في حديقةِ الشاي المطلةِ على محطةِ القطارِ وبيدي كتابٌ أقرؤهُ وأكتبهُ يثيرُ فضولَكمْ. وربما تقولون:

ـ ماذا يفعلُ هذا هنا في يومِ العطلةِ وفي الصباحِ الباكرِ، ألا يفترضُ أن يكونَ نائماً؟

قلتُ لكم سابقاً:

ـ أنا بطلُ القصةِ، السريرُ يزعجُني، برامجُ التلفزيون الصباحيةُ وصحيفةُ نهايةِ الأسبوعِ لا تستطيعُ إلهائي.

استيقَظْتُ اليوم على صوت جدتي في منامي. ولحظةَ استيقاظي رميتُ باللحاف عليَّ ونظرتُ إلى النافذةِ. صوتُ تغريدِ طائرٍ في حيِّنا ورائحةُ الربيعِ التي ملأتِ الجوَّ. أخذتُ نفساً عميقاً؛ عدتُ إلى وعيي قليلاً. توجهتُ إلى الحمامِ. كُنتُ أشعرُ كمنْ يفتقدُ شيئاً. كُنتُ أرجفُ من

داخلي. ما فهمتُه حينَها أنَّني غريبٌ عن هذا المكانِ. كُنتُ أُعاني حنينَ الغربة. لم أستطعِ الاعتيادَ على العيشِ هنا كالراعي الَّذي لا يستطيعُ الانصياعَ للقوانينِ.

خرجتُ من المنزلِ وبداخلي حزنُ الوحدةِ والشوقِ. خطرتْ حينها على بالي حديقةُ الشاي. حديقةُ الشاي القادمةُ من داخلِ إحدى الحكاياتِ.

قبلَ سنواتٍ، وعند أولِ يومٍ لي في هَذِهِ المدينةِ، كَانَتْ حديقةُ الشاي أولُ مكانٍ أزورُه. كُنتُ أجدُ نفسي في هَذِهِ الحديقةِ بعيداً عن ضجيجِ المدينةِ الصاخبِ وأبنيتِها العاليةِ.

أردتُ المجيءَ إلى هنا هذا الصباحِ لأَنَّني شعرتُ بحاجتي لذَلكَ.

ربَّما فكرتُ أنْ أركبَ القطارَ الَّذي يمرُّ من هنا وأذهبُ بعيداً.

لا أستطيعُ وصفَ ما بداخلي جيداً، أعلمُ، لغتي ليستْ بلغةٍ سهلةِ الفهمِ. ربَّما تقولون عني طفلٌ ابتعد عنِ الواقع كثيراً. يؤلِمُني قولُكم هذا.

أنتم كبارٌ، انطفأتْ أضواءُ قلوبِكم، وبقيتُم بأضواء خافتةٍ. في حال تظنُّون أنَّني مَن يعيشُ بالظلامِ، ولكن في الحَقيقةِ أعيشُ على أضواءِ قلبي.

قبل مجيئي إلى هنا أردتُ شربَ حساء، وقبلَ أنْ أنهيَ طَعامي دخلَ رجلٌ كبيرٌ. جعلهم يفتحونَ التلفاز على مباراةٍ لكرةِ قدمٍ في فصلِ الربيعِ، وامتلأَ المكانُ بالضجيجِ.

لم أعدْ أشعرُ بلذةِ «شوربة العدس» التي كُنتُ أشربُها. كُنتُ قدْ جئتُ إلى الحديقةِ هرباً منْ هذا، جئتُ ووجدتُكم.

كنتمْ تقولونَ:

ـ لا تتصرَّفْ بطفولةٍ.

لنْ أستمعَ إليكمْ، سأبقَى دائماً طفلاً حتَّى لو خرجتُ من حِكايتي واندمجتُ معكم سأعودُ إليها لأَنَّني أتتبعُ أثرَ أبي دوماً.

عِندَما كَانَتْ تلوحُ جدتي بغطاءِ رأسِها كُنتُ أغضبُ كثيراً وأركضُ وأختبئُ في ظلِّ جنيةٍ. الجنيةُ التي أَعنيها هي شجرةُ الرمانِ.

عِندَما أسألُ شجرةَ الرمانِ عنْ مكانِ والدي، تقولُ لي:

ـ والدُكَ قد ماتَ.

ولكني أقولُ:

ـ لا، أبي لم يمتْ. لا أحدَ يعلمُ أينَ هو الآنَ. هلِ الَّذي ماتَ عصفورٌ أم فراشةٌ أم رائحةٌ زهرة زكيةٍ فواحة؟

هكذا أنا دائماً داخل القصصِ.

حسناً فلنسكتِ الآنَ. انظرْ! حتَّى القطار خرجَ من داخل قصةٍ وجاءَ. بَعدَ قليلٍ سيعودُ أيضاً إليها كما هربَ منها.

نعم، أنا طفلٌ، وأتصرفُ بطفوليةٍ. ولكنَّ الطفولةَ عبارة عن محطةِ قطارٍ ساحرةٍ. ولكن في يومٍ سيأتي قطارُ الكبارِ ويأخذُ هذا الطفلَ ويذهبُ. لا أحدَ يعرفُ مدَى جمال الطفولةِ إلا الَّذين لم يصعدوا قطارَ الكبارِ.

هلْ أنتمْ مدركونَ لذَلكَ؟ لا أعلمُ، ولكنَّ اللحظاتِ التي نحلمُ أنَّ تكونَ في الجنةِ نجدُها لأولِ مرة في سنين الطفولةِ. كلَّما كبرنا واختلفتِ اهتماماتُنا وابتعدْنا عن أنفسِنا ووضعْنا غطاءً على قلوبِنا سنبتعدُ أكثر عن هَذِهِ الجنةِ. ولكن البلوغَ حقيقةٌ. وربما في إحدى الطرقِ للوصولِ إليه ستفقدُ خلالها جنتك وبشكلٍ مؤلمٍ أيضاً.

فبعضُ الكبارِ يحاولونَ قُصارَى جهدِهم الحفاظَ على جنَّتهم من فقدانِها.

لستُ ضعيفاً. ولكني أحاربُ كي لا أخسر جنتي، لأَنَّهُ ليسَ لديَّ مصباحٌ. لا تُضيئوا بمصابيحِكمُ العمياءِ طريقي. فمصابيحُكم لا تضيءُ طريقي. أريدُكمْ أنْ تعلموا أنَّ قلبي مفتوحٌ للجنياتِ فقطْ.

إذا كنتمْ تفكِّرون أني مجنونٌ أو حتَّى مسكين، فأنتم مخطئون. فكِّروا بأطفالكم وبأحفادِكم. تذكروهم! الطفولةُ عالمٌ ساحرٌ، أمَّا عالمُ الكبارِ فهو خطيرٌ.

إذا كبرَ الإنسانُ وأرادَ لمرةٍ واحدةٍ أنْ يعودَ صغيراً فسيخسرُ حتماً شيئاً مقابلَ ذَلكَ. فالعودةُ من عالمِ الكبارِ إلى الطفولةِ لها أخطارٌ، بعضها ظاهر وبعضها مخفي. بَعدَ قولِنا عن هَذِهِ الدنيا أنها سيئةٌ وبشعةٌ نجدُ أنَّنا نقتربُ أكثر إلى جمالِ عالمِ الطفولةِ، وأنتم! اكبروا واستمروا بذَلكَ.

حتَّى إذا ادَّعوا أنَّ الحياةَ التي يعيشونَها هي الأجملُ والأفضلُ فهم يكذبون، لأَنَّهُ عندَ اقترابِهم من طفلٍ فهمْ

ينوونَ تحويلَه إلى شخصٍ بالغٍ كبيرٍ، ويلعبون على جسدِه الصغيرِ لعبةَ القوةِ.

هل أضغطُ عليكمْ كثيراً؟ فهمتُ، تريدون الذهابَ. . اذهبوا. وأنا سأكملُ حديثي مع بطلِ حكايتي. ولكن قبل أن تذهبوا أريدُ أنْ أخبرَكمْ شَيئاً:

إذا كانَ كلُّ شيءٍ يسيرُ على نحوٍ جيدٍ، وعُرضتْ عليَّ إمكاناتٌ جديدة ليستْ موجودة بعالمي الساحر هذا فسأذهبُ إلى عالمكمْ برضايَ حينها.

ما أريدُهُ أنْ يأتيَ معي هو نهرُ العاصي، البيوتُ الخشبيةُ، أكوامُ الخضار، وبعدُ، تِلكَ الأبقارُ، ثم الدجاجُ وبيضُه الطازجُ الَّذي نبدأُ وجبة الفطور به، والفطائرُ المحمرةُ بالفلفلِ الطازجِ. وأيضاً ذاك الحقلُ الكبيرُ، الَّذي يشبهُ الحلمَ والشوقَ الَّذي لا ينتهي.

بَعدَ ذَلكَ حصانٌ، وأريدُه أبيضَ اللونِ حصراً، لأَنَّني لم أكتفِ من طفولتي، ولا من شبابي الَّذي ذهبَ بسرعةٍ، ولا مِن أحلامي المؤجلةِ، ولا الحزن الَّذي شهدتُه في عيني أمّي.

أنا بالنهايةِ طفلٌ، أحنُّ للحكاياتِ التي كَانَت ترويها لي جدتي لا أكثر. لنْ أطيلَ عليكمْ. يمكنكمُ الذهاب الآنَ.

انظروا! لَقَد جاءَ الكبارُ أيضاً وبيدهمُ الصحيفةُ.. وبعدَ قليلٍ سيطلبونَ الشاي. أعلمُ، مضطرون للذهابِ. فكلٌّ واحدٍ فيكم ينتظرهُ الكثيرُ من النقودِ ليكسبَها.

قطارٌ آخرُ، هذا قطاري، روحي تذهبُ باتجاهِ حكايةِ جدَّتي.

هُناكَ حقولٌ طويلةٌ على قدرِ الحلمِ والأشواقِ.

اذهبوا أيُّها الكبارُ، اذهبوا، وودعوا طفولتَكم.

كُلُّ شَيءٍ حَدَثَ وَأَنَا أَكبُرُ

طُفولتي؛ كسيارةٍ تحاولُ السيرَ وسط ضبابٍ شديدٍ. أمشي في هذا الضبابِ الشديدِ باتِّجاهها. أحاولُ التخلصَ مما يجري في حياتي من أحداثٍ صعبةٍ جداً. أحاولُ الهربَ من أن أصبحَ كبيراً أو بالأصحِّ أن يفسدَني البلوغُ.

نعم، إني أتبرَّأُ منهم ومن مرحلةِ البلوغِ هذه، فهي تجلبُ الضبابَ معها. بَيْنَما الطفولة تلوحُ بيدها إليَّ، أرى ألعابي، بَيْنَها عروسٌ على شكل طفلٍ ساحرةُ الجمالِ. أقصُّ عَلَيها قصصَ جدَّتي الحلوةَ، عنِ الجبالِ العالية والفرحة التي بداخلها، عنِ الشِّعْرِ المنثورِ بجانب تِلكَ الجبالِ، وعنِ السلاطينِ، والثلاثين نسراً والصقور أيضاً. كلَّما شرحتُ عن هذا كله أشعرُ بضرباتِ قلبي تزدادُ شيئاً فشيئاً. ألوح بيدي للمسافرين بعيداً.

لا وجودَ للوحدةِ في حياتي. هُناكَ الكثيرُ من الناسِ

الرائعين في الحكايات. كلُّهم يذهبون إلى المكانِ الَّذي يريدونَه. صحيحٌ أنهمْ لا يملكون القوةَ، ولكنَّهم لا يهتمُّون لامتلاكِها أصلاً. الحياةُ تعنيهم وليسَ الموت.

عِندَما أذهبُ مع أبطالِ الحكاياتِ آخذُ معي الدُّمى أيضاً؛ تحمرُّ خدودُها قليلاً وكأنَّها تبتسمُ. يمشون بخطواتٍ ثابتةٍ إلى داخل حياتي، يرون أحلامي. الركوبُ على حصانٍ رماديٍّ والابتعادُ عنِ المنزلِ، كلُّ ما يريدونَه هو الاختلاطُ بالحياةِ.

أخي يؤذيهم دائماً ويشدُّهم من شعرِهم. لديهِ لعبةُ حصانٍ عَلَيه شابٌّ يقودُه، يقولُ أخي باستمرارٍ أنها له، أنظرُ إليه وأسألُه:

ـ إلى أين تذهبُ؟

يقولُ لي:

ـ لآخذَ أميري.

لا ينزلُ عن ظهرِ حصانِ أحلامِه. يذهبُ إلى قمةِ الجبلِ. أقولُ لنفسي: «إلى متى سيستمرُّ هكذا في طريقه؟».

يقول لي:

ـ سيبقَى فعلُ الخيرِ يحملني إلى هُناكَ حتَّى لا يبقَى أيُّ وجهٍ شاحبٍ، وإلى أن تزهرَ الحقولُ جميعها.

أزيلُ الضيقَ عنِ الوجوه التي تصارعُه. ألومُ الكبارَ على موتِ الأطفالِ بِسببِ الجوعِ. أقولُ دائماً: لَقَد ماتوا بِسببِهم. لو أنَّهم بدلَ شجارِهم هذا ورفع سلاحِهم نظروا إلى وجوهِ هؤلاءِ الأطفالِ ووضعوهم مكانَ أطفالهم لكانوا على قيدِ الحياةِ الآنَ.

يزعجُني عدمُ التحركِ لفعلِ شيءٍ، أرتاحُ عِندَما أشاركُ ألعابي الدُّمى مع أصدقائي. تقبيلُ طفلِ أختي التي ولدتْه حديثاً يريحُ قلبي أيضاً. لن أصبحَ كبيراً سيئاً، سأبقَى دوماً بجانب الأطفالِ.

أنظرُ إلى الشارعِ من نافذةِ غرفتي؛ هُناكَ سكةُ قطارٍ أمامَ منزلنا، يأتي ليأخذَ الناسَ ويذهبَ بهم بعيداً.

أسألُ جدتي:

ـ إلى أينَ يأخذُ هذا القطارُ الناسَ؟

أنظرُ إلى وجهها المغطَّى بغطاءِ رأسها، تلوحُ بنظرها

بعيداً عني مع سؤالي دونَ أيِّ إجابةٍ. كان يطولُ صمتُها، ثمَّ تمسكُ بيدي وتنظرُ إليَّ وتقولُ:

ـ هذا يُدعى قطار الكبارِ. كلُّ شخصٍ سيأتي الوقتُ الَّذي سيركبُ فيه. عندَ أولِ مقطورةٍ تبدأُ مرحلةُ بلوغكَ، وعِندَما تصلُ إلى آخرِ مقطورةٍ تبدأُ مرحلةُ ألمكَ. تتذكرُ طفولتَك وقد تريدُ العودةَ لها، ولكنَّهم لا يسمحونَ لك بذَلكَ، فالرحلةُ انتهتْ، لا يمكنُك العودة، تبدأُ بالتصرفِ بطفولية لينزلوك.

أنا الآنَ في هَذِهِ المرحلةِ، لهذا السببِ أنا أكثرُ من يفهمُكَ الآنَ. بَعدَ فترةٍ قصيرةٍ سيأتي قطارٌ آخرُ، وهو قطارُك، سيأتي لأخذِك بعيداً، عن طفولتِك، عن نفسِك.

عِندَما أتذكرُ الكبارَ لا يخطرُ ببالي إلا الأطفالُ الَّذين ماتوا. أقول:

ـ لا، لا أريدُ ركوبَ هذا القطارِ.

تقولُ لي جدتي:

ـ لا تحزنْ يا طفلي، أنا أيضاً لم أردِ الصعودَ إليه، ولكنَّه قدرُنا جميعاً، ولكنكَ تستطيعُ فعلَ شيءٍ واحدٍ

فقط، وهو أنْ تبقى طفلاً داخلَ هذا القطارِ وتتحدثَ دائماً مع الطفلِ الَّذي بداخلكَ.

مرَّ زمانٌ طويلٌ على إخراجي الألعابَ من داخلِ الصناديقِ. اعتدتُ على مرورِ الوقتِ دون اللعبِ.

طريقِي قد تغيرَ وألعابي أيضاً؛ الطرقُ، السياراتُ، المطاعمُ، الملابسُ الملونةُ، البحرُ. كلُّ شيءٍ مختلفٌ الآنَ.

تأتي أُمِّي في يومٍ وتدخلُني داخلَ مبنى جديدٍ وتقولُ لي:

- هذا بيتُكَ الثاني.

ملابسي مختلفةٌ، وعلى ظهري حقيبةٌ بداخلها قلمٌ وكتابٌ. يوجدُ الكثيرُ من الأطفالِ داخل بيتي الجديدِ. عندَ دخولنا هُناكَ رجلٌ يقفُ في المنتصفِ يُدعى «معلماً».

إنه يعرفُ كلَّ شيءٍ، يستطيعُ قراءةَ ما على الكتابِ، ويكتبُ على السبورةِ باستمرارٍ، ونحنُ نكتب بَعدَ ذَلكَ على دفاترنا. أشتاقُ لأمي، أبي وأخي.

تنتظرني أُمِّي عند خروجي وتأخذُني إلى البيتِ.

وتسألُني عمَّاذا تعلمتُّه خلالَ اليومِ، أُريها دفتري، أرَى نظرةَ الإعجابِ في عينيها وتقول:

ـ كم هو جميل، ابني كبرَ وبدأَ بالكتابةِ!

بعدَ أنْ أنتهي من كتابةِ الوظائفِ التي قد أَعطاها المعلمُ أشاهدُ القليلَ من البرامجِ التي تشاهدُها أُمِّي على التلفازِ. كما قالتْ أُمِّي عن هذا بيتي الثاني، هُناكَ بيوتٌ أخرى غيرُه.

أصدقائي ومعلماتي في ازديادٍ. أصبحتُ أجيدُ القراءةَ. وفي أكثر الأحيانِ يكونُ عندي الكثيرُ من الواجباتِ المدرسيةِ التي يجبُ عليَّ إنهاؤها. أدخلُ أكثرَ من امتحانٍ لتزيدَ فرصي في دخولِ أماكنَ جديدةٍ، أنتهي منها كلها وآخُذُ شهادتي المكتوبَ عَلَيها اسمي بالخطِّ العريضِ: «أحمدُ. أنْهَى المدرسةَ».

أصبحتُ أملكُ شهادةً الآنَ، أخي، الحصانُ، السعادةُ، جدتي، قطارُ البلوغ. . . كلُّ ذَلكَ أصبح من الماضي.

الآنَ، تذكرتُ جدتي. ذهبتُ صباحَ العيدِ مع عائلتي لزيارة قبرِها، ووضعتُ أزهارَ القرنفل على قبرها، بَعدَ ذَلكَ سمعتُ صوتاً يقولُ لي:

ـ ألـمْ تـكـنْ قـد اعـترضـتَ عـنِ الـصـعـود إلى الـقـطـارِ؟ أصبح واضحاً الآنَ أليسَ كذَلكَ؟ كلُّنا نعارضُ في الماضي، ولكنَّك الآنَ أنتَ أيضاً كبيرٌ. ولا تستطيعُ محاسبةَ الكبارِ عنِ الأطفالِ الَّذين ماتوا من الجوعِ، لأنَّك أنتَ الآنَ أصبحتَ مثلهم.

ماذا عليَّ فعلُه الآن؟ لا أستطيعُ فعلَ شيءٍ. لَقَد تضايقتُ.

الآنَ أعملُ محامياً، المشاكلُ تنتظرُني باستمرارٍ لحلها، أقفُ مدافعاً عن حقوقِ الآخرينَ.

أنسى نفسي بَيْنَ الحزنِ والتعقيدات والحياة الدراماتيكية. أسقطُ في منتصفِ الحياةِ كالسقوطِ في النهرِ، أحاولُ اللحاقَ بواجباتِ الحياةِ.

أريدُ الاكتفاءَ من الحياة، لذَلكَ أساعدُ الأيادي التي امتدتْ إليَّ. أذهبُ مع اليدِ التي أمسكُها برحلةٍ. الآنَ «أنا» لستُ موجوداً، «نحن» موجودون. أفقُ الخيالِ هُناكَ، حيثُ أحلامُنا، سنصبحُ أشخاصاً مهمين. وسنربحُ المركزَ الأولَ.

وأنا أركضُ في دعوةِ الأفق هذه، هُناكَ الكثيرُ من

الشهداءِ في داخل قصص مُزّقت، نتسببُ نحنُ في خسارتهم لمنازلهم وحياتهم. وهل يعتبرُ هذا نجاحٌ بالنسبةِ لنا!!؟

يصافحُني الأفقُ بيده اليمنى، يخرجُ صوتٌ ثمَّ يعمُّ الصمتُ من جديدٍ.

انفصلَ أحمدُ عن عائشةَ، الطفلُ سيبقى عندَ عائشةَ وسيدفعُ أحمدُ النفقةَ. كُنتُ أنا محامي عائشةَ، فمنَ الطبيعيِّ أنها ستدفعُ لي أجرتي.

من أينَ لي أن أعلمَ أن اليدَ التي صافحتُ بها سيأتي يومٌ وتبقَى خاليةً في الهواءِ؟! لا نستطيعُ التنبؤَ بنهاياتٍ مشابهةٍ لقضيةِ أحمدَ وعائشةَ.

ألسنا نحنُ من قالَ يوماً:

ـ مُنْذُ أنْ رأيتُك ولم أعدْ أرَى سواكِ في الوجودِ، لديَّ كثيرٌ من مشاعرِ الحبِّ نحوك وليسَ هُناكَ كلمةٌ واحدةٌ تعبرُ عمَّا أشعرُ به. فلديَّ الكثيرُ من الاحترامِ والحبِّ لكِ، وفي الوقت نفسِهِ التقدير. كيف سَحرتني؟ لا أعلم!؟

لا أملكُ جواباً لهذا السؤالِ. إني تعبٌ حقاً مما أعرفُه.

يوجدُ حياةٌ فقدتْ سحرَها وهذا ما يؤلمُني، ألاحظُ ذَلكَ عِندَما أبقَى لوحدي وأعودُ إلى نفسي أقولُ:

ـ نعم لديَّ أطفالٌ وأبطالٌ في حكايات جدتي، كُنتُ ألعبُ معهم، كَانَت حياتي واسعةً أكثرَ ورقيقةً، وعِندَما كبرتُ أصبحتِ القصصُ والأطفالُ من الماضي.

يقولون: الفراغُ لا يُحتملُ، كان أبطالُ الحكاياتِ يملؤونَ حياتي الطفوليةَ. أما الآنَ فيوجدُ فرقٌ في علاقتي مع هؤلاءِ الأبطالِ. لَقَد أصبحتُ أنا الآنَ لعبتَهم، أنتقلُ من يدٍ إلى أخرى، لم أعدْ كما كنتُ.

لَقَد فهمتُ أنني تعبٌ من لعبِ دورِ شخصٍ آخرَ لا يشبهُني في الحَقيقةِ.

اليوم هُناكَ تهديدٌ حقيقيٌّ يواجهُ الكبارَ، فقدْ أصبحَ هُناكَ الكثيرُ من الكبارِ الَّذين يعيشون حياةَ طفلٍ، أخافُ أن يشبهونا وتتغيرَ أبطالُهم ويتعبوا.

الآنَ لا يوجدُ قصصُ أطفالٍ، فالقوةُ عندي. ألا تلاحظون كيف أنَّ الحياةَ فقدتْ رونقَها؟

يمسكني أميري الآنَ من قدمي، اسمُه مطر. فلتمطرْ

آمالُ أمه يوماً إن شاء اللهُ. أُصبحُ أرضاً له ليمطرَ فوقي، أتعلمُ منه من جديدٍ حياةَ الطفولةِ.

غادرتُ قطارَ الكبارِ قبلَ أنْ أصلَ إلى عمرِ جدتي، ولكن أكثر ما جعلني أبقى بحيويَّتي هي قصصُ الأطفالِ التي قرأتُها. الآنَ أقرأُ قصةَ الأميرِ من جديدٍ، وهُناكَ الكثيرُ من القصصِ، منها قصةُ «سندريلا» مثلاً.

وَقْتُ الرَّحِيْلِ

كانَ فصلُ الربيعِ، الرياحُ تعصفُ يميناً ويساراً على طولِ طريقِ الحريرِ في بلدِ العراقِ، وكأنها تعصفُ بقلبي أيضاً.

أتأمَّلُ جمالَ الطريقِ من نافذةِ السيارةِ، قبل (15) عاماً كنَّا ننتظرُ جنازةَ جدي على هذا الطريقِ نفسِهِ. اجتمعْنا بَعدَ سماعِ خبرِ الموتِ، في صباحِ أمسِ كُنتُ في إسطنبول. بَعدَ بضعِ ساعاتٍ من سماعي خبر وفاةِ بطلِ طفولتي «جدي» ذهبتُ إلى ديار بكر ثمَّ إلى هنا، كُنتُ أنتظرُ جنازةَ جدِّي وسط وجوه أناسٍ أعرفُها ولا أعرفُها وأناس لم أرَها لسنواتٍ.

المئاتُ من الناسِ قدْ حضروا جنازةَ جدي بَعدَ غيابِ (15) سنة عن هنا مع (300) سيارة.

كَانَتْ أول مرةٍ تشهدُ القريةُ التي ولدتُ فيها كلَّ هَذِهِ الحشودِ من الناسِ. سألَ أحدُ رجالِ القريةِ:

ـ ومنْ هذا الرجلُ المهمُّ حتَّى اجتمعتْ كلُّ هَذِهِ الحشودُ لأجله؟

حتَّى أنا بدأتُ أفكِّرُ وسط كل هَذِهِ الحشودِ من الناسِ، ما السرُّ في جدي؟

لمْ يكنْ جدي رئيس حزبٍ ولا وكيلاً ولا مختاراً، لكنه دائماً يمسكُ بيدِ مَن يقعُ في مأزقٍ، يتدخَّلُ دائماً في حياةِ الناسِ ولكنْ بنيةٍ جيدةٍ. لمْ يكنْ متعلماً، ولكنَّه شهدَ الكثيرَ، ولديه من التجاربِ في الحياةِ مخزونٌ كبيرٌ، أنهى شجاراتٍ وأصلحَ بَيْنَ ناسٍ، وحلَّ الخلافاتِ بَيْنَ المتحابِّيْنَ. بيتُه لا يخلو من الضيوفِ، وهو يُسقيهم من قهوتِه المرةِ حتَّى يُرضيهم.

اللَّيالي التي قضيتُها في غرفتهِ أتذكَّرها الآنَ كجزءٍ من حكايةٍ، بَعدَ الصلاةِ يُخرجُ قرآنهُ ويقرؤهُ بخشوعٍ ليختلطَ صوتُه مع صوتِ هديرِ ماءِ الشلالِ المجاورِ لمنزلهِ.

إني أتكلَّمُ عن بطلِ طفولتي الآنَ؛ أتحدَّثُ عن جدي

«الحجّي» مصطفى الَّذي ساعدَ ناساً كثيرين على حلِّ مشاكلهم. رجلٌ خرجَ وتحدَّى الظروفَ الصعبةَ وأصلحَ من نفسياتِ الناسِ ومشاكلِهم، دخلَ في حياتهم كلِّهم وغيَّرها، لذَلكَ همْ هنا الآنَ.

عِندَما أفكرُ بوفاةِ شخصٍ كالجبلِ بقوتهِ في القريةِ أشعرُ بداخلي يتمزقُ. في يومنا هذا، الرجالُ الَّذين يشبهون جدي لا يتدخلون بحياة أحدٍ. ولا أحدَ يمشي بجنازةِ أحدٍ، لأَنَّهُ لم يبقَ شخصٌ عظيمٌ ليُمْشَى بجنازته، وليسَ هُناكَ أحدٌ ليمشي بالأساسِ. الآنَ يعيشُ كلُّ شخص داخلَ قوقعتهِ، ولم يبقَ لديهم أبطالُ حكاياتٍ.

أن تجدَ شخصاً يعطي معنى للحياةِ ويكون قدوة للأجيالِ القادمةِ ويولد الحكايات؛ أصبحَ صعباً جدّاً ونادراً. فلنتذكرْ معاً «يونسَ إيمره» الَّذي عاشَ الفقرَ لـ (40) عاماً ولكنَّه كانَ صاحبَ روحٍ مؤثرةٍ.

نعم! الأشخاصُ ذو السمعةِ الطيبةِ همْ كالجبلِ، يعطون أسرارَهم فقط لمَن يجاهدُ للحصولِ عَلَيها.

حتَّى تصلَ إلى الجبلِ عليكَ تسلقُ القمةِ، فهذا عملٌ

شاقٌّ لا يفيدُ فيه التعبُ. ولكنَّ هذا الجيلَ مستعجلٌ في كل شيءٍ، يريدُ أنْ يتحققَ كلُّ شيءٍ بسرعةٍ، يريدُ الوصولَ بسرعةٍ وأنْ يتملَّكَ كل شيءٍ بسهولةٍ، الصبرُ يكادُ يسقطُ من روحِ هذا الجيلِ. الزمانُ في معجمِ الأطفالِ هو الصبر.

عِندَما تصل إليهم ستستطيع حينها أن تفتح قلوبهم، من ذهب إليهم لم يعد كما كان من قبل، يُولد من جديد عِندَما يتعرف عَلَيهم.

عِندَما تكونون بجانبهم، يذهبُ الفراغُ والنقصُ الَّذي تشعرون به، تفرغون من أنفسكم وتمتلئون بهم، ولكن مرضَ هذا العصرِ هي الـ «أنا» حب النفسِ، يريدُ أن يكونَ الأولَ بكلِّ شيءٍ، أنْ يتخطَّى البقيةَ ليكونَ هو في المقدمةِ. وكأنَّ لكلِّ شخصٍ مملكته الخاصة به.

الإنسانُ عِندَما يكبرُ ويصبحُ صاحب قوةٍ يبحثُ دائماً عنِ الضعاف ليمارسَ عَلَيهم قوته، وليسَ لأحدٍ الرغبةُ والنيةُ في التخلصِ من هَذِهِ الغطرسةِ والغرورِ.

هكذا ينغلقُ الشخصُ على نفسه ويخنقُها، مع ازديادِ غطرسته يصبحُ صغيرَ القيمةِ، وعِندَما تصغرُ قيمتُه يصبحُ

محيطُ حياته صغيراً، والحياةُ الصغيرةُ لا تستطيعُ مواجهة الكلامِ الكبيرِ ذي المعنى العميقِ، بلِ الحياة الصغيرة تبقى عند الكلامِ الصغيرِ، لإيجادِ العظماءِ الَّذين نبحثُ عنهم نحتاجُ إلى قُطرٍ أوسعَ وأكبرَ، ومن جديدٍ التوجه في الطريقِ إلى البعيدِ.

يَجِبُ أن نتوجَّه إلى الأشخاص الَّذين يضيئون حياتَنا ويوسعون من أفقنا، ويسلطون المعنى الحقيقيَّ لنا لنعرفَه، ويعطوننا قيمةً لحياتنا، يَجِبُ أن نذهبَ ونطرقَ أبوابَهم، ونفتحَ لهم أبوابَ قلوبِنا، ونفتحَ لهم مكاناً في حياتِنا.

ما أريدُ قولَه: إنَّه وقتُ الرحيلِ من حياةِ الرجالِ الضعيفةِ الصغيرةِ، ووقت السيرِ باتجاهِ الجبالِ العظيمةِ لرسمِ طريقِ حكايتِنا.

المَوْتُ في حُزَيْرَان صَعْبٌ

لا أتذكرُ وقتَ إحضارِه إلى بيتِنا، لذَلكَ لا أعرفُ حكايتَه. لا أعلمُ السببَ الحقيقيَّ لوجودنا في هَذِهِ الحياةِ، هل نحن راضون فعلاً عنِ البقاءِ فيها؟ لا أملكُ جواباً لذَلكَ.

يبدو لي كالسجنِ، كأنْ تحجزَ أحدَهم في مكانٍ ما دونَ إرادتِه. شعرتُ بضيقٍ للقفص الَّذي يجلسُ فيه، يبدو تعيساً. كان غريباً، يعيشُ في وسطٍ لا ينتمي إليه. هل كانَ له خيارٌ أفضلُ؟ لا أعرفُ ذَلكَ أيضاً.

لا أستطيعُ الجزمَ بمقدارِ اللونِ والحماسِ الَّذي يحمله إلى حياتنا، ولكن يمكنني القولُ: يَجِبُ أن نعوِّدَه جيداً على هذا. لَقَدِ اكتملَ منزلنا به، نغيرُ مكانَه، ننظفُه، نضعُ الماء بجانبه ونغطيهِ.

كنتُ أنظر إليه دوماً وأشعرُ بالذنب تجاههُ، ولكنَّه كانَ

طائرَ أخي، كانَ هو أكثر شخصٍ يهتمُّ به، لم يعدْ للغريبِ وجودٌ. لَقَد ماتَ!

كم من الزمنِ يعيشُ طائرُ الزينةِ؟

لقد علمتُ بوفاته عند عودتي من العملِ، كانَ أخي حزيناً، سألتُه:

ـ ماذا حصلَ؟

انهالَت دموعُه من عينيه، وذهبَ إلى غرفتهِ.

قالتْ أمي:

ـ الغريبُ قد ماتَ. مُنْذُ الصباحِ لم يضعْ لقمةً في فمهِ.

جمدتُ في مكاني. لَقَد ماتَ في منزلنا، ونحنُ أيضاً قد متنا معه. نحنُ مَن قَطفه؛ أيدينا وعيونُنا مذنبةٌ.

قمتُ بتعزيةِ أخي، لم يقلْ شيئاً، أعطاني ورقةَ تقويمٍ. لكلِّ يوم هُناكَ ملاحظةٌ قد كُتِبَتْ خلفها، في الثالث من حزيران كُتِبَ: «الموتُ في حزيران صعبٌ».

ما الَّذي كان يُبكي أخي فعلاً؟ هل هو العصفورُ؟

هل هذا كلُّ ما في الأمرِ؟

ما هو الشيءُ الَّذي يربطُ الإنسانَ في الحياةِ يا ترى؟

هل لحجمِ الشيءِ أهميةٌ أم أن حتَّى تِلكَ المَخلوقات الصَّغيرة مهمَّة كما الكبيرة؟

كنَّا نعتقدُ أن الأهميةَ تكون بحجمِ الشيءِ، ولكن اتَّضحَ أنها كذبةٌ كبيرة، فقدْ تكونُ القيمةُ في الأشياءِ الصغيرةِ أكبر.

كانَ شيئاً صغيراً ولكن روحهُ كبيرة. أعادَ بوجودِه الحيويةَ إلى البيتِ، فغالباً ما فقدنا نحن حيويتَنا.

لا يوجدُ الآنَ شيءٌ يؤلمنا حقاً، الموتُ، الفراقُ. . . لا نحملُ أيَّ كلمةٍ في قلوبنا لما تركتْه الحياةُ من آلامٍ، لَقَدِ اعتدْنا عَلَيها.

لا نستطيعُ التفريقَ بَيْنَ كل ما يجري في حياتِنا، ولا نشعرُ بالألمِ لفقدانِ أجزاء من حياتنا. وفي موسمِ الخريفِ الحزينِ، لا تذكرنا الأوراقُ الحمراءُ التي حرقتها الشمسُ بغربتنا.

أكثر ما يصفُ خوف البارحة حشرة تكادُ لا تُرى لصغرها تختبئُ تحت الطحالب التي على الصخرة التي

تضربُها أمواجُ البحر. بضعُ صفحات عن حدث البارحة وهذا ما استنتجته.

حشرة هي مخلوق حيٌّ كباقي المخلوقاتِ تشعرُ بحاجتها لبعضِ الأشياء، تركضُ بضعَ سنتيمترات لتؤمنها، ثمَّ تموتُ.

حشرةٌ واحدة، لا نستطيعُ رؤيتَها بوضوح ولا نشعرُ بوجودها، صغيرة، ولكن بداخلها عالمٌ كبير. تقريباً كل أسئلةِ الحياة نجدُ جوابها عند هَذِهِ الحشرةِ الصغيرة.

ذهبَ الرسولُ ﷺ مرة لتعزيةِ طفلٍ ماتَ عصفورُه. رسولُنا صاحبُ الوجدانِ العظيمِ والقلبِ الطيبِ. فما بالُنا نحن وكلُّ هذا الكِبر؟!

الدَّوَاءُ في طُفُولَتِنَا

«لقدْ قرأتُ القلبَ المخلصَ
البريءَ في الأطفالِ
انظرْ أيُّها الطفلُ
نهرَ الحياةِ يطلُّ عليكَ
الطريقُ والمسافرُ أنتَ
هيا لا تنتظرْ وتتبعْ أثرَ الضوءِ
وضعتَ على قلبكَ إشارةَ صوتٍ»

شعر مصطفى روهي

نرغبُ من الوقتِ للآخرِ في العودةِ إلى طفولتِنا، ولكن السيرَ في سنين الطفولةِ ليسَ بهذهِ السهولةِ.

هلِ السيرُ إلى مستقبلكَ سهلٌ؟

تريدون السيرَ، تجدون الطريقَ مفتوحاً أمامكم.

والأصحُّ إذا أردتمُ الوقوفَ مكانكم فسيساهمُ الوقتُ مع غيرهِ من الأشياءِ في تقدُّمكمْ، سيدفعكمُ إلى نهايةٍ مجهولةٍ.

أمَّا السيرُ في الماضي فلا يكونُ بهذا الشكلِ. إذا وقفتَ في الماضي ولم تخطُ أيَّ خطوةٍ فليسَ هُناكَ أيُّ قوة يمكنُها أن تحرِّكَكم من مكانكم.

يَجِب أن تقرِّروا، وربما هذا لنْ يكفيَ، يَجِبُ أن تكونَ إرادتُكم قويةً مع التَّخلي عنْ كثيرٍ من الأشياءِ، ويَجِبُ بَعدَ ذَلكَ سكبهُ في طبقٍ وكسرُه.

الأمرُ صعبٌ جدّاً، لقد ربطتمْ بأغلال ما قدْ عشتُموه. هل من السهلِ عليكمُ التَّخلي عن عادةٍ قديمةٍ لديكم، كالتَّدخين مثلاً بَعدَ كلِّ هَذِهِ السنواتِ؟

في الماضي كان يعني التَّخلي عن شيءٍ ما التخلي عن أنفسكمْ.

نعم صعبٌ، تذكرِ الطفولةَ من جديدٍ، والعودة إليها. يَجِب أن تحدِّدوا سببَ رفضِكم للكبارِ. تنتظركم مواجهةٌ حادةٌ كخروجِ المجرف الحادِّ من الأرضِ مع اليومِ وكل ما قد مَضى في طفولتكمْ.

تنتظرُكم أسئلة جديَّة عن سببِ عدمِ انضمامكم إلى السيرِ اليوم، وتَعيشُون داخل نفسيَّة غريب عن هنا.

لن تجدوا الراحةَ في النظرات المحبةِ التي ستنظرُ إليكم في مكان لا تنتمونَ إليه، ستتألمونَ وتُسألونَ الكثيرَ من الأسئلةِ.

كلٌّ اختيارٍ في الوقت نفسه هو تخلٍّ. عِندَما تقولون: «نعم» على شيء ما، في الحَقيقةِ أنتم تقولون: «لا» عمَّا يقابلُه.

عِندَما تختارون الطفولةَ فأنتم تتخلونَ عنِ البلوغِ والنضجِ. وصولُكم إلى هَذِهِ المرحلةِ يكونُ ممكناً فقطْ بالتخلِّي، وتتخلصونَ بعدَها من أيِّ أثرٍ للبلوغِ والنضجِ، عِندَما تتجرَّدون من البلوغِ فأنتم ترتدونَ الطفولةَ.

أقولُ لمن يخافُ من أن يصبح كبيراً، ويسيرُ في طريقِ طفولتهِ:

ـ الدواءُ في طفولَتنا، يوجدُ بها مراهم آلامِنا العميقةِ.